إشارات العُشّاق في التراث العربي القديم
– دراسة بلاغية لنصوص شعرية ونثرية في ضوء التواصل الإشاري–

د.فيصل أبو الطُّفَيْل
جامعة القاضي عياض/ المغرب

ملخص البحث

للإشارات في تراثنا العربي مكان مكين وسر دفين؛ حفلت بها مؤلفات الأدب واللغة والبلاغة ومصنفات الفقه والعقيدة والحديث والتفسير والتصوف وغيرها..فقد مَثُلَتْ علامات بارزة في عناوين كثير من الكتب (الإشارات الإلهية لأبي حيان التوحيدي–الإشارات والتنبيهات لابن سينا– لطائف الإشارات (=تفسير القشيري)– القواعد والإشارات في أصول القراءات لابن أبي الرضا الحموي الحلبي...)، كما أفرد لها القدماء أبوابا وفصولا في مؤلفاتهم ..، وضربوا بها المثل في سرعة التواصل وجدواه فقالوا: "أسرع من الريح ومن البرق ومن الإشارة"، وقالوا أيضا:"من لم يهده قليل الإشارة لم ينفعه كثير العبارة"، ووصفها ابن جني بقوله: "رب إشارة أبلغ من عبارة"، وجعلها القرطبي رديفة الكلام فقال: "الإشارة بمنزلة الكلام ؛ وُتفهم ما يُفهم القول"، ونُقل عن بعض المتصوفة قولهم: "كلامنا هذا إشارة فإذا صار عبارة خفي"..

وقد اخترنا للبحث في الإشارة موضوعا طريفا يثير اهتمام الباحث والقارئ في آن: إنها إشارات العُشّاق في التراث العربي القديم، التي نأمل تسليط الضوء على أمثلة منها في نصوص شعرية وأخرى نثرية تستبصر إبراز فعالية الإشارات حين تنوب مناب العبارات عند هذه الفئة التي كُتِبَ عليها العُدول عن دال العبارة إلى بليغ الإشارة، في سياقات تواصلية لم تسمح لهم بالكلام المباشر؛ إما توجّسا من تنبّه الرقيب، أو تضليلا لفضول الغريب، وفي ذلك يقول الشاعر:

وتوحي إليك باللحاظ سلامها *** مخافة واش حاضر ورقيب

إن الإشارة وسيلة تواصلية بيانية لا تقل أهمية عن التواصل بالكلام، سيما إذا ضاقت العبارة واستعصى على العاشق البوح بما في صدره تجاه من يحط على قلبه محط الاهتمام والاتهام على السواء. إنها متنفسه الوحيد والقناة الضامنة لنقل مشاعره وحالاته الشعورية.

والإشارات في مقامات العشق والهوى أنواع وأشكال يروم هذا البحث الغوص في سماتها البلاغية ومقاربة كيفيات اشتغال نظامها التواصلي، والتعرف على ملابسات إنتاجها ضمن سياقات يحتضنها خطاب في العشق.

ABSTRACT

L'allusion romantique dans la tradition arabe. Etude rhétorique de vers et de proses à la lumière de la communication allusive.

L'allusion occupe une place de choix dans la tradition arabe. En témoignent des ouvrages de différentes disciplines : littérature, langue, rhétorique, fiqh, dogme, hadith, exégèse…etc. dans le cadre de ce travail, nous nous sommes fixés comme objectif d'aborder un thème burlesque à savoir les allusions d'amoureux dans la tradition arabe qu'on entend approcher à travers des exemples en vers et en prose où le mot explicite fait place à la suggestion et au non dit dans des contextes où la censure rend impossible parole franche.

L'allusion est un moyen de communication aussi important que la parole directe. Et plus particulièrement quand, dans un milieu hostile à l'expression libre, l'amoureux y trouve le seul biais lui permettant de révéler ses sentiments sans pour autant subir les affres de la censure.

Notons qu'en amour l'allusion prend des formes différentes et se décline en plusieurs variétés. Cette recherche s'interroge sur ses particularités rhétoriques, le fonctionnement de son système communicationnel, les circonstances qui permettent sa production dans le contexte du discours romantique. A ce propos, notre étude portera précisément sur :

- Les mouvements des yeux : clin d'œil, yeux doux, indication par l'œil, battement de cils, abaisser les paupières, les fermer, froncer les sourcils…etc.
- Gestes de la main, de la paume et des doigts

توطئة: من العبارة إلى الإشارة

الإشارة وسيلة من وسائل الإبلاغ غير اللغوي، تختصر بلمحتها ما يحتاج فيه إلى الكلام، وتقتنص بخفة تناقلها ذكاء الأفهام، بل إن كثيرا من القدماء فضّلوها على العبارة وميزّوها عنها بسرعة الفهم والإدراك وتحقيق المقصود بأقل الجهود، فالعرب إلى الإيجاز أميل وإلى التلميح بدل التصريح أقرب.قال ابن جني: "رُبَّ إشارة أبلغ مِن عِبارة"[1].ونبّه الثعالبي في السياق نفسه إلى أن الذي لا يُحسن التواصل بأبسط الإشارات لن تنفعه وفرة العبارات.يقول:"من لم يهزه يسير الإشارة، لم ينفعه كثير العبارة"[2].

وقد وردت أمثال كثيرة وأقوال مثيرة تحضّ على التخاطب بالإشارة فتجعلها جبلّة في أصل الطبيعة ونقاء قنوات تواصلها.من ذلك جواب الموبذ عن سؤال كسرى: ما كان أفضل الأشياء؟ قال: الطبيعة النقية تكتفي من الأدب بالرائحة، ومن العلم بالإشارة"[3]. ومنه أيضا ما نص عليه الثعالبي في قوله:

"قَالَ بعض بلغاء الْحُكَمَاء: لِسَان الْحَال أنطق من لِسَان الْمقَال"[4]. وهو قول ينسحب على كل مقام يقتضي النظر في ما تبوح به الإشارة لأنه أبلغ وأدل على حال صاحبه من التعبير بالكلام.وجاء في المثل:

"إذَا لَمْ تُسْمِعْ فَأَلْمِعْ؛ أي إن عَجَزْتَ عن الإسماع لم تعجز عن الإشارة"[5]. ومثله في خفة الإشارة وسرعة تبليغها لما في النفوس: "أَسْرَعُ مِنَ الرّيحِ، وَمِنَ البَرْقِ، وَمِنَ الإِشَارَةِ"[6]. ويمكن أن نستحضر أخيرا البيت/المثل المشهور الذي يجعل من الإشارة دالا على فهم الأحرار واكتفائهم بها لغة صامتة في التواصل.يتعلق الأمر بالقول المأثور:

"العَبْدُ يُقْرعُ بالْعَصَا ... والحُرُّ تَكْفيهِ الإشَارَةْ"[7].

وتبعا لما سبق يمكن القول: إن الإشارة تفصح عن مكنونها وتبوح بمعانيها وتسدّ مسدّ الكلام فتكون أبلغ في التعبير عن المعاني ونقل الانفعالات والحالات النفسية.

التواصل الإشاري في التراث العربي

إذا كان ابن جني قد عرّف اللغة في ضوء وظيفتها التواصلية بقوله:

"أما حدها فأصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم"[8]. وهو تعريف يبرز أن جوهر اللغة عند أبي الفتح مبني على تحقيق التواصل الاجتماعي بين ملق ومتلقّ بغرض التعبير عن عدد من الأغراض المتجددة، فإن المرزوقي يضع استعمال الأصوات في التخاطب في مرتبة ثانية بعد مرتبة الإشارة التي تبيّن الغرض وتفي بالمقصود في أيسر وقت وأبلغ خطاب.يؤكد ذلك قوله: اعلم أن الحاجة إلى المواضعة بالأصوات هي البيان عن المراد لما كان الكلام المستعمل تنبها عليه، فلذلك يستغني الحكيم فيما عرف مراده عن الخطاب إلا عند كونه لطفا في فعل المراد ومتى أمكنه بالإشارة والإيماء بيان غرضه عدل عن الخطاب إلا أن يكون لطفا كما ذكرناه"[9]. ولعل المرزوقي نظر في كلام الجاحظ واستقى منه حكمه في تفضيل الإشارات على الأصوات المستعملة في الكلام، فقد أثبت الجاحظ في البيان والتبيين قوله:

"ومبلغ الإشارة أبعد من مبلغ الصوت فهذا أيضا باب تتقدم فيه الإشارة الصوت(...)وحسن الإشارة باليد والرأس من تمام حسن البيان باللسان مع الذي يكون مع الإشارة"[10].

وقد اهتم القدماء بدراسة الإشارة وأنواعها، كما حرصوا على إبراز فعاليتها التواصلية وما تنماز به عن الكلام المباشر.فمن ذلك ما نص عليه الجاحظ بقوله:

"فأما الإشارة فباليد وبالرأس وبالعين والحاجب والمنكب إذا تباعد الشخصان وبالثوب وبالسيف وقد يتهدد رافع السوط والسيف فيكون ذلك زاخرا رادعا ويكون وعيدا وتحذيرا"[11]. كما لم يفته بيان العلاقة بين الإشارة والعبارة داخل الخطاب التواصلي والتنبيه إلى إمكانية تضافرهما أو تبادل الأدوار فيما بينهما.يقول:

على قدر وضوح الدلالة وصواب الإشارة وحسن الاختصار ودقة المدخل يكون إظهار المعنى وكلما كانت الدلالة أوضح وأفصح وكانت الإشارة أبين وأنور كان انفع وأنجع"[12].

ويقول أيضا:

"والإشارة واللفظ شريكان ونعم العون هي له ونعم الترجمان هي عنه وما أكثر ما تنوب عن اللفظ وما تغني عن الخط"[13].

يفهم من كلام الجاحظ أن الإشارة تكون قرينة الكلام فتعين على إيصال المراد منه وربما نابت منابه فترجمت ألفاظه إلى إشارات دالة وإيماءات موحية، وبهذا المعنى "فإن الإشارة قد لا تكون منفردة في العملية التواصلية .ولكن قد تكون مساعدة للفظ واللسان من حيث أنها موضحة

ومدققة"[14]. وقد تفصح عن المعاني الخفية إذا عجز اللسان عن التعبير عنها أو كان الصمت في مقام التخاطب أسلم وأنجع، فتكون الإشارة الملاذ الوحيد لإيصال الكلام في غير نطق.يقول ابن عبد ربه:

"إن الإشارة تبين ما لا يبينه الكلام، وتبلغ ما يقصر عنه اللسان؟ ولكنها إذا قامت مقام اللفظ وسدت مسدّ الكلام، كانت أبلغ؛ لخفة مؤنتها، وقلة محملها"[15].

حضور الإشارة في تعريفات البلاغة:

لا تكاد تخلو تعريفات البلاغة عند القدماء من إشارة إلى الإشارة بوصفها أحد الأعمدة التي تقوم عليها بلاغة الكلام، فمن ذلك ما صرّح به الجاحظ قائلا:" لم يفسر البلاغة تفسير ابن المقفع أحد قط سئل ما البلاغة؟ قال: البلاغة اسم جامع لمعان تجري في وجوه كثيرة فمنها ما يكون في السكوت ومنها ما يكون في الاستماع ومنها ما يكون في الإشارة ومنها ما يكون في الحديث (...) فعامة ما يكون من هذه الأبواب الوحي فيها والإشارة إلى المعنى"[16].

وينقل الجاحظ في موضع آخر من البيان والتبيين قوله:

"قيل للهندي ما البلاغة قال وضوح الدلالة وانتهاز الفرصة وحسن الإشارة"[17].

وسئل بعضهم عن البلاغة فقال:

«هى لمحة دالّة!» .

وهذا مذهب العرب، وعادتهم فى العبارة، فإنهم يشيرون إلى المعانى بأوحى إشارة! ويستحبون أن تكون الألفاظ أقلّ من المعانى فى المقدار والكثرة"[18]. إن كلام العرب مبني في مجمله على الاختصار دون التطويل وعلى الإشارة قبل العبارة وعلى الاقتصار على الاختصار، وهذه كلها معالم دالة على فصاحتهم وعلى تلطّفهم في محاوراتهم وإشاراتهم.يقول ابن رشيق:

إن العرب إنما فضلت بالبيان والفصاحة، وحلا منطقها في الصدور وقبلته النفوس لأساليب حسنة، وإشارات لطيفة، تكسبه بياناً وتصوره في القلوب تصويراً"[19].

وقد جعل التوحيدي بلاغة الخطابة مبنية على قرب اللفظ وكثرة الإشارة.يقول: "وأما بلاغة الخطابة فأن يكون اللّفظ قريبا، والإشارة فيها غالبة، والسّجع عليها مستوليا، والوهم في أضعافها سابحا، وتكون فقرها قصارا، ويكون ركابها شوارد إبل"[20]. كما وقف بلاغة المثل على حسن إشارته

وانكشاف مغزاه وكفاية ملمحه.يقول: و"أما بلاغة المثل فأن يكون اللفظ مقتضبا، والحذف محتملا، والصورة محفوظة، والمرمى لطيفا، والتّلويح كافيا، والإشارة مغنية، والعبارة سائرة"[21].

وللإشارة في الشعر العربي نصيب شأنها شأن الخطابة، فقد عقد ابن رشيق في كتابه الموسوم بالعمدة بابا أسماه: "باب الإشارة"، افتتحه بقوله:

"والإشارة من غرائب الشعر وملحه، وبلاغة عجيبة، تدل على بعد المرمى وفرط المقدرة، وليس يأتي بها إلا الشاعر المبرز، والحاذق الماهر، وهي في كل نوع من الكلام لمحة دالة، واختصار وتلويح يعرف مجملاً ومعناه بعيد من ظاهر لفظه"[22]. إن كلام ابن رشيق يربط بين الشاعرية وبين القدرة على توظيف الإشارة والتلميح الناجمين عن براعة الشاعر وحذقه في اختصار ألفاظه واختراع معانيه.فإذا ضوعفت هذه الأخيرة كانت الحاجة إلى الإشارة أدعى وإلى الإيماء أوجب، وهو ما نجد صداه في قول ابن أبي الحديد:

"إن المعاني إذا كثرت، وكانت الألفاظ تفي بالتعبير عنها احتيج بالضرورة إلى أن يكون الشعر يتضمن ضروبا من الإشارة وأنواعا من الإيماءات والتنبيهات"[23].

الإشارات في مقامات العشق:

للإشارات في مقامات العاشقين مكان مكين، فهي الوسيلة البيانية المثلى التي يلجأ إليها العشّاق في مقام تواصلي تُمنع فيه العبارة وتستدعى الإشارة لغة صامتة غير منطوقة تترجم بدقة ما سكت عنه الكلام وتُجَنِّبُ العاشقين ما قد يلحقهما من ملام، وتفتح أمامهما جسرا آمنا لتبادل المشاعر والانفعالات وفسح المجال للتلويحات والإيماءات للتعبير عن الحالات، "والإيحاء والإشارة من أقوى عوامل التأثير في النفس، بل هما من الوسائل الحية التي تنقل ما في النفس من المعاني والمشاعر والعواطف"[24].

قيل لبعض الرؤساء: ابنك قد عشق! فقال: الحمد لله! الآن رقت حواشيه، ولطفت معانيه، وملحت إشارته، وظرفت حركاته، وحسنت عباراته، وجادت رسائله، وحلت شمائله، فواظب على المليح، واجتنب القبيح"[25].

فالعشق يدفع صاحبه إلى تدقيق معانيه وتلطيف إشاراته وتحسين عباراته، وتزداد الإشارات لطفا كلما ظفر العاشق برؤية معشوقه، ذلك أن "الإشارة تتوقف على المشاهدة"[26].

وتزخر كتب الأدب بحكايات العشاق وقصصهم، وأغلبها مما تحتل فيه الإشارة النصيب الأوفر والملاذ الوحيد لتيسير التخاطب بين العاشقين، فمن هذه الحكايات على سبيل التمثيل ما رواه السرّاج القارئ في كتابه الموسوم ب: مصارع العشاق، يقول:

دخل نصيب على عبد العزيز بن مروان، فقال له: هل عشقت يا نصيب؟ قال: نعم! جعلني الله فداءك، ومن العشق أفلتتني إليك البادية. قال: ومن عشقت؟ قال: جاريةً لبني مدلج، فأحدق بها الواشون، فكنت لا أقدر على كلامها إلا بعين أو إشارة، فأجلس على الطريق حتى تمر بي فأراها، ففي ذلك أقول:

جَلستُ لهَا كَيْمَا تَمرّ لعَلّني ... أُخَالِسُها التسليمَ، إنْ لمْ تُسَلِّمِ

فَلَمّا رَأَتْنِي وَالوُشاةَ تَحَدّرَتْ ... مَدَامِعُها خَوْفاً وَلمْ تَتَكَلّمِ

مساكينُ أهلُ العشق ما كنتُ أشترِي . حَياةَ جَمِيعِ العاشِقِينَ بِدرْهَمِ"[27].

تجمع هذه الحكاية بين دفتيها مجموعة من المواقف الدالة على ما يسببه الوقوع في العشق من معاناة، سيما إذا تعذر على العاشق وصال من يهواه بحضور الرقباء الذين يحولون دون تواصل الأفئدة وتحقيق المراد.فنصيب يرجع سبب تركه البادية وقصده عبد العزيز بن مروان إلى جارية تعلّق بها قلبه ولم يترك له الرقباء سبيلا للوصول إليها، فما كان منه إلا أن يلزم طريق مرورها ليظفر منها بكلام هو محض تحريك يد أو إشارة عين.وقد حوله هيامه بها إلى شاعر ينشد التسليم خلسة فتأتيه دموعها إشارات على ما بها.لقد أنطقه العشق شعرا كثيف الإشارة بليغ التعبير عن الحال. "والأديب ذو الحسّ المرهف يُلْقِي على المعاني التي لا يحمل التصريح بها سِتْراً كلاميًّاً، إذ يدلُّ عليها بالكنايات والإشارات والتلميحات ومعاريض الألفاظ"[28].

ومن الحكايات التي تستوقف النظر وتجتذب التأمل في جانبها التواصلي الإشاري حكاية الأعرابي المتعفف التي يعرضها الوشاء كالآتي:

"قال أعرابي، وخلا بامرأة كان يتعشقها: ما زال القمر يرينيها، فلما غاب أرتنيه، قيل: فما كان بينكما؟ قال: أقصى ما أحل الله وأدنى ما حرم الله عز وجل، إشارة في غير باس، ودنو في غير مساس، وأنشأ يقول:

ولرب لذة قد نلتها ... وحرامها بحلالها مدفوع"[29].

إن قراءة أولية لهذا النص تفضي بنا إلى استكناه جملة أشياء في مقدمتها حرص الأعرابي على البوح بمكنونات قلبه تجاه من يعشقها حيث اكتفى في مخاطبته إياها بِالإِشَارَةِ، واقترب منها دون أن يقع في المحرم، فالرقيب هنا هو الوازع الديني ومراعاة الجانب الخلقي درءا لكل ذنب من شأنه أن ينغّص عليه حلاوة اللحظة و يشوش عليه متعته بمشاهدة القمر.

الإشارات الحسية في القوافي الشعرية

من الإشارات الطريفة التي ابتدعها الشعراء وضمنوها قوافي قصائدهم ما يُعبَّر فيه عن المعاني بالحركات والإيماءات مما يحرّك النفوس ويدفعها إلى التأثر بما تسمعه والانفعال بما يرد عليها منه في أواخر الأبيات الشعرية.وهذا النوع من الإشارات التي تحتل مواقع القوافي لا نكاد نجده إلا عند المبرزين من الشعراء ممن يقرض الشعر بديهة وارتجالا.ومن ذلك ما رواه ابن رشيق عن أبي نواس ، قال:

"جاء أبو نواس بإشارات أخر لم تجر العادة بمثلها، وذلك أن الأمين بن زبيدة قال له مرة: هل تصنع شعراً لا قافية له؟ قال: نعم، وصنع من فوره ارتجالاً:

ولقد قلت للمليحة قولي ... من بعيد لمن يحبك: " إشارة قبلة "

فأشارت بمعصم ثم قالت ... من بعيد خلاف قولي: " " لا لا "

فتنفست ساعة ثم إني ... قلت للبغل عند ذلك: " " امش "

فتعجب جميع من حضر المجلس من اهتدائه وحسن تأتيه، وأعطاه الأمين صلة شريفة"[30]. وقد أعجب الرافعي بهذا النوع من الإشارات ورأى أنها أبلغ من العبارات ناهيك عما تضمنته من ظرف وملاحة.يقول:

"هذا نوع عجيب، تنوب فيه الحركة أو الإشارة عن اللفظ في موضع القافية موقعة على عروضها، وهو نهاية في الظرف والملاحة؛ لأن من المعاني ما قد تكون الحركة أو الإشارة فيه أبلغ من اللفظ دلالة وأبدع موقعًا وأحسن إطرابًا، وإنما يكون لها ذلك إذا كان فيها معنى من معاني القلب، فكأن القلب هو الذي ينطق؛ ولذلك لا يعدو أن يصيب مواقع الهوى ويحرك في النفوس العجب والاستحسان"[31].

إشارات العيون: وعد لا يخون

للعيون لغة متميزة أغرت كثيرا من الأدباء والشعراء بالكتابة عنها وبترجمة خطاباتها التي يستعصي فهمها إلا على الذين يدركون فحواها ويقدّرون سياقاتها.والعين تنضح بإشارات كثيرة وحركات موازية منها الغمز والتغميض وتدقيق النظر والإشارة بلحظ العين واهتزاز الجفون وتكسيرها ورفة الأهداب وإطباقها وتحريك الحاجب والغمز به والإشارة بمؤخر العين..وهي في كل ذلك رسول القلب إلى المعشوق والناطق بما يجيش في الصدور من إلف ومودة وتعلّق، يقول الشاعر[32]:

فتخرس منا ألسن حِين نَلْتَقِي ... وتنطق منا أعين وَقُلُوب

وقد تفنّن عمر بن أبي ربيعة في صياغة أبيات هي من روائع التلويح إلى المعاني بإشارات العيون التي تقول أكثر مما تقول عبر فجوات صامتة تنضح بالتقاط أمارات المحبة والتسليم من عيون مرتقبة في الوصال راغبة. يقول[33]:

أشارتْ بطَرْفِ العين خِيفَةَ أهلِها ... إشارةَ محزونٍ ولم تَتَكَلَّمِ

فأيقنتُ أنّ الطَّرْفَ قَد قال مَرْحَبَاً ... وأهلاً وسَهْلاً بالحبيبِ المسَلِّمِ

وأبرزتُ طَرْفي نحَوَها لأُجِيبَها ... وقلتُ لها قولَ امرئ غيرِ مُعْجِمِ

هنيئاً لكم قتلي وَصَفْوُ مَودّتي ... وقد سِيطَ في لحمي هواكِ وفي دمي

فعندما نفسر هذين البيتين نجد:

*وسيلة تبليغية غير لغوية تتمثل في الإشارة .

*قناة التبليغ : وهي طرف العين.

*طرفا التبليغ، وهما: (المشير / المرسل) يتمثل في المحبوبة.

(المشار إليه / المتلقي) يتمثل في المحبوب.

*مقام التبليغ :يتمثل في الخوف والذعر ولذلك تم إرسال الإشارة بالعين حتى لا ينتبه الآخرون للخبر ويعرفونه، إذ يتطلب المقام التكتم.

*المواضعة (Code):وهو الشفرة المتعارف عيها بين المشير والمشار إليه .

ولذلك حصلت الفائدة وتحققت الغاية من الحديث الإشاري"[34].

وقد تنبّه الجاحظ إلى ما في مناجاة العيون بطرف يشير من بعيد، فيفهم رجع لحظه بالإشارة المغنية عن العبارة.يقول:

"وفي الإشارة بالطرف والحاجب وغير ذلك من الجوارح مرفق كبير ومعونة حاضرة في أمور يسرها الناس من بعض ويخفونها من الجليس وغير الجليس ولولا الإشارة لم يتفاهم الناس معنى خاص الخاص ولجهلوا هذا الباب"[35]. فالحكمة وراء العدول عن العبارة إلى إشارة الجوارح-وفي مقدمتها العين-إنما هي إخفاء أشياء تطمئن النفس بسترها و لا يتوصل إليها إلا من كان من الخاصة.وإذا كانت العيون وسيلة لحفظ الأسرار فإن دموعها تبدي وتفضح ما بين الجوانح، وفي ذلك يقول ابن حزم[36]:

إذا كتم المشغوف سر ضلوعه ... فإن دموع العين تبدي وتفضح
إذا ما جفون العين سالت شؤونها ... ففي القلب داء للغرام مبرح

وفي هذا المقام أيضا قال بعض الشعراء[37]:

العينُ تُبْدي الذي في نَفْسِ صاحبها ... منَ المحبَّةِ أوْ بُغضٍ إذا كانا
والعينُ تَنطقُ والأفْواهُ صامتةٌ ... حتَّى ترى منْ ضميرِ القلْب تِبْيانا

وقد عقد ابن حزم في كتابه الموسوم بطوق الحمامة، بابا أسماه :"باب الإشارة بالعين"، جاء فيه:

"..ثم يتلو التعريض بالقول إذا وقع القبول والموافقة: الإشارة بلحظ العين، وإنه ليقوم في هذا المعنى المقام المحمود، ويبلغ المبلغ العجيب، ويقطع به ويتواصل، ويوعد ويهدد، ويقبض ويبسط، ويؤمر وينهى، وتضرب به الوعود، وينبه على الرقيب، ويضحك ويحزن، ويسأل ويجاب، ويمنع ويعطى.ولكل واحد من هذه المعاني ضرب من هيئة اللحظ لا يوقف على تحديده إلا بالرؤية، ولا يمكن تصويره ولا وصفه إلا بالأقل منه"[38].

إن ابن حزم في النص السابق يقرّب من الأذهان ما تراه الألحاظ في الأعيان، وما تستطيعه هذه الجارحة من أمر ونهي وتهديد ووعيد وإجابة ومنع وتنبيه على الرقيب ...كل ذلك رهين حركتها وهيأتها بالمشاهدة والتفطّن لمعانيها، ويتابع ابن حزم تفصيل انواع حركات العين وبيان ما ينتج عنها من معانٍ تختلف باختلاف حركاتها قائلا:

"فالإشارة بمؤخر العين الواحدة نهي عن الأمر، وتفتيرها إعلام بالقبول، وإدامة نظرها دليل على التوجع والأسف، وكسر نظرها آية الفرح، والإشارة إلى إطباقها دليل على التهديد، وقلب الحدقة إلى جهة ما ثم صرفها بسرعة تنبيه على مشار إليه، والإشارة الخفية بمؤخر العينين كلتهما سؤال،

وقلب الحدقة من وسط العين إلى الموق بسرعة شاهد المنع، وترعيد الحدقتين من وسط العينين نهي عام، وسائر ذلك لا يدرك إلا بالمشاهدة"[39].

ومثلما تكون النظرات الناعمة من المحبوبة علامة انشراح وإبداء وصال، يكون النظر الشزر من المحبوبة علامة هجر وفراق.يقول مسلم بن الوليد[40]:

جعلْنا علاماتِ المودَّةِ بينَنا ... دقائقَ لحظٍ هنَّ أخفَى منَ السِّحرِ

فأعرفُ منها الوصلَ في لينِ طرفِها ... وأعرفُ منها الهجرَ بالنَّظرِ الشزْرِ

ولعل من الإرهاص اللطيف والإيماء الطريف أن يصف ابن حزم خطاب إشارات العيون بأنه أبلغ خطاب وأوفى نصاب يبلغ به العاشقان مرادهما وتنوب فيه عن رسل الإشارة عن العبارة.يقول:

"واعلم أن العين تنوب عن الرسل، ويدرك بها المراد، والحواس الأربع أبواب إلى القلب ومنافذ نحو النفس، والعين أبلغها وأصحها دلالة وأوعاها عملاً"[41].

الإشارة باليد:

أ–الإشارة بالكف:

تدخل الإشارة بجارحة اليد ضمن التواصل غير اللغوي الذي يعتمد على حركات الأيدي والأصابع وكيفيات قبضها وبسطها وما تشير إليه حسب السياقات المختلفة. ولليد قيمتها ولغتها الخاصة والمعبرة، فإلى جانب إمكانية استخدامها وسيلة للعمل والإبداع فهي تختزن دلالات أخرى من قبيل تبادل التحايا عن بعد، والترحيب وإبداء الموافقة أو الإشارة إلى التوقف أو التحذير من أمر معين..وتنسج الكف علاقة نوعية مع الأصابع عبّر عنها أعرابيّ بقسمه الخاص، فقال: لا والذي شقهنّ خمسا من واحدة، وأشار إلى كفه"[42]. وتصير اليد بديلا لجملة أشياء يحتاج التعبير عنها إلى حشد مجموعة من الألفاظ، ذلك "أن المشير بيده يشير دفعة واحدة إلى أشياء لو عبر عنها بلفظ لاحتاج إلى ألفاظ كثيرة جداً"[43].

إن الإشارة ببعض الكف تصعب، وبكل الكف تسهل.

وقد تحدّث الشعراء عن الأكف المودعة عند لحظة الفراق، وجعلوها علامة على البوح بالسلام، من ذلك قول بعضهم[44]:

أشارت لنا بالكف وهي حزينة ... تودعنا إذ لم يودع سلامها

ويرى ابن أبي الإصبع أن" الإشارة ببعض الكف تصعب، وبكل الكف تسهل"[45]. ولعل ذلك راجع إلى انضمام الأصابع في حركة الكف وكونها لا تحتاج إلى كثير تأمل عكس حركة الأصابع داخل الكف الواحدة.

ب–الإشارة بالبنان (الأصابع):

قد تشير لغة الأصابع إلى الرضا أو الإعجاب مثلما قد تومئ إلى الرفض أو التحذير، ويختلف ذلك باختلاف الثقافات التي تخصص لكل إصبع دلالاته المرجعية داخل المجتمع.

وحينما يصف الشاعر توظيف الأصابع لغة للإشارة بين العشاق فإن المقام يختلف لأن الغرض الجمالي من الوصف يضفي على الإشارة بالبنان طابعا خاصا، فمن ذلك أن "مَرْوَان بْن أَبِي حَفْصَة أنشد هَارُون الرشيد قصيدته الَّتِي يَقُولُ فِيهَا:

لَعَمْرُكَ لَا أنسى غَدَاة الْمُحَصَّبِ ... إِشَارَة سلمى بالبنان المخضب

وَقَدْ صَدَر الْحُجّاجُ إِلا أَقَلَّهُمْ ... مَصادر شَتّى موكبًا بعد مَوْكب

قَالَ: فأعجبتْه، قَالَ لَهُ: كم قصيدتك بَيْتا؟ قَالَ لَهُ: سِتُّونَ أَوْ سَبْعُونَ بَيْتا، فَأمر لَهُ بِعَدَد أبياتها ألوفًا، فَكَانَ ذَلِكَ رَسْمُ مَرْوَان حَتَّى مَاتَ"[46].

إن اقتران الإشارة بخضاب البنان أدخل على الخليفة هارون الرشيد بهجة السرور بما صاغه الشاعر مروان بن أبي حفصة شعرا يفيض بصور العشق الذي مثّله الشاعر بالإشارة باعتبارها القسم الصامت الذي يستدل به على القسم المنطوق، فكانت المكافأة على قدر التفنن في الصياغة والبراعة في التعبير والتلطف في الإشارة.

وقد تومئ الإشارة بالبنان إلى معنيين مختلفين: الأول ظاهر بادٍ والثاني مستتر خفي.ومن ذلك قول الوزير ابن سهل[47]:

وَلما أشارت بالبنان وودعت ... وَقد أظهرت للكاشحين تشهدا

طفقنا نَبُوسَ الأَرْضَ نُوهِمُ أننا ... نُصَلِّي الضُّحَى خوفًا عَلَيْهَا من العِدَى

لقد أوهمت المرأة بإشارتها عبر البنان (السبابة) أنها تشهّد وهذا هو المعنى الظاهر الذي اتقت به عيون الرقباء، بينما تشير السبابة نفسها إلى توديع الأحبة وإعلامهم بأن محبتهم في القلب كامنة ومودتهم في الأعماق ثابتة.

إن الإشارة بالأصابع تعكس خطابا مزدوجا يستنجد فيه لسان القول بالحركة الخاطفة والإشارة الدالة، وتخلّص الأحبّة من ترصّد الرقباء وفضول الغرباء، وفي ذلك يقول العباس بن الأحنف[48]:

يا لَلرِّجَالِ لِعَاشِقَيْنِ تَوَافَقَا ... وتخاطبا من غير أن يتكلما

حتى إذا خَشِيَا الوُشاةَ وأشفقا ... جعلا الإشارة بالأنامل سلّما

تراسل الإشارات وتضافرها داخل سياقات التواصل:

قد يجمع الشاعر في أثناء وصفه لمواصلة الأحبة بين مجموعة من الإشارات تتضافر فيما بينها لتبليغ رسائل الهوى؛ من "إيماء بنصف الطّرف، وإشارة بشطر الكف"، وتسليم بحركات الأيدي وتعبير عن الحزن بدموع تجري على الخدود، وتعبر على حذر كل الحدود، إلخ..، ومن الأمثلة الدالة على ذلك قول أبي الطيب المتنبي (354هـ):

وجَلاَ الوَداعُ من الحَبيبِ مَحاسِناً ... حُسْنُ العزاءِ، وقدْ جُلِينَ قَبِيحُ

فَيَدٌ مُسَلِّمَةٌ وطَرْفٌ شاخِصٌ ... وحَشًى يذُوبُ ومَدْمَعٌ مَسْفُوحُ

قال صاحب التبيان في شرح البيت الثاني:

" يَقُول: لَو تَرَانَا عِنْد الوَدَاع، وَنحن فِي حَال، لرحمتنا؛ اليَد تُشِير بِالسَّلَامِ، والطرف شاخص إِلَى وَجه المُوَدَّع، وَالقلبُ ذائبٌ حُزْنًا من ألم الْفِرَاق، والدمع مصبوب وَهَذَا تَقْسِيم حسن"[49]. لقد أبدع المتنبي في تقسيم إشارات الجوارح : فاليد تسلّم والعين ترشق بنظرتها وجه المُوَدَّع والقلب في حزنه يذوب والدمع من ألم البين ينهمر. وكلها إشارات تترافق لتجسّد مشهد الفراق في أدقّ تفاصيله وأتم صوره.

ومن ذلك أيضا ما جاء على لسان جارية تتعجّب لقربها ممن تعشق مع بعدها عن الحديث إليه، واقتصارها على خطاب الإشارات في حركات العيون وتردد الأنفاس وتحريك الفم والغمز بالحواجب وتكسير الأجفان والتسليم بالأكف:

أليس عجيباً أن بيتاً يضمني ... وإياك لا نخلو ولا نتكلمُ

سوى أعينٍ تبدي سرائرَ أنفسٍ ... وتقطيعُ أنفاسٍ على النار تُضرم

إشارةُ أفواهٍ وغمزُ حواجبٍ ... وتكسير أجفانٍ وكفٌّ يُسلِّم"[50].

تتحدد قنوات التواصل بين الأفراد تبعا لما تسمح به خصائص الفضاء التواصلي من إمكانيات، فقد لا يسمح وجود شخصين في المكان نفسه بتيسير عملية التواصل اللغوي المباشر، وتمثّل أبيات

أبي تمام المشار إليها أعلاه مؤشرا دالا على القيمة التي تتميز به لغة الإشارات بالعيون (على مستوى الحواجب والأجفان) وبحركة الأفواه والأكف سيما حين يفرض السياق التواصلي على المحِبَّيْنِ الاقتصار على الإشارة دون الإفصاح بالعبارة.وهذا أسلم لهما وأطيب لنفسيهما وأدل على مودتهما.

خاتمة:

نود في هذه الخاتمة أن نستعرض أهم ما تم التوصّل إليه في هذا البحث على شكل نقاط مركزة نوجزها في ما يلي:

*يتردد تفضيل الإشارة على العبارة في كثير من مصنفات الأدب والنقد، ومرد ذلك إلى أن العرب تميل الإيجاز وتفضّل التلميح بدل التصريح، وتؤمن بقدرة الإشارات على تبليغ المعاني المقصودة بأيسر كلفة وأخف محمل وأسرع وقت. من هذا المنطلق شاعت عبارة: رب إشارة أبلغ من عبارة.

*يدخل التواصل الإشاري ضمن دائرة التخاطب بالصمت والاستغناء عن الكلام بحركات الجسد (إيماءات الوجه-لإشارات العين-حركات اليد...)، ولهذا النوع من التواصل أسباب وحيثيات تؤكّد حضوره لغة غير منطوقة تمثّل بديلا للكلام المباشر وتبلّغ رسالتها عبر قناة تواصلية إشارية محضة.

*لا تكاد تخلو تعريفات البلاغة عند القدماء من إشارة إلى بلاغة الإشارة في ملاحتها وحسنها وغرابتها وبعدها وسرعتها وخفتها وخفائها، وفي الشعر نماذج شتى عرض فيها الشعراء لوظائف الإشارة التي تختص بها الجوارح (اليد- الكف-الأصابع-العين-الفم-..).

*يتبوأ التواصل الإشاري بحركات العيون مكانة متميزة في التراث البلاغي العربي، وقد كان الجاحظ وابن حزم سباقين إلى التنبيه على خصوصيات هذا النوع من التواصل من خلال عرض أنواعه وبيان معانيه والاستشهاد له من الشعر بما يناسبه ويوازيه.

*تبرز حكايات العشاق في النصوص النثرية والشعرية الحضور القويّ للغة الإشارية في المواقف التي لا تسمح بالإفصاح المباشر عن مكامن القلوب، ولذلك اجتهد العشّاق في إخفاء تعلّقهم ببعضهم البعض فسلكوا طريق الإشارة الخفية والإيماء السريع إلى ما في قلوبهم..فنتج عن ذلك صقل الحواس وتدريبها على التواصل بلغة الصمت؛ ينبّهون بإشارات البنان ويسلمون بالأكفّ و يتبادلون

التحيات بالحواجب ويشفقون على القلوب فيضعون الأيدي فوق الترائب، يضلّلون الوشاة والرقباء بإشارات يقفون عليها لكنهم لا يدركون كنهها لأنها تنطوي على أسرار لا تنكشف إلا بفطرة العشق وسجية المحبة وإلف المودة.

الهوامش والإحالات

1- ابن جني أبو الفتح عثمان (392هـ)، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، دط، دت، 80/1 و 247. و 284/2.وفي العقد الفريد: "رب إشارة أبلغ من لفظ".ينظر: ابن عبد ربه الأندلسي (328ه)، العقد الفريد، تحقيق محمد سعيد العريان، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ط2، 1953م، الفريد، 108/2.

2- الثعالبي أبو منصور (429ه)، سحر البلاغة وسر البراعة، تحقيق عبد السلام الحوفي، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، دط، دت، ص: 188.وفي مجمع الأمثال: من لم يهدِه قليل الإشارة لم ينفعه كثير العبارة. ينظر: الميداني أبو الفضل (518هـ)، مجمع الأمثال، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت، لبنان، دط، دت، 456/2.

3- العقد الفريد، 260/2.

4- الثعالبي أبو منصور، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، دار المعارف – القاهرة، دط، دت، ص: 322.

5- مجمع الأمثال، 77/1.

6-المصدر نفسه، 355/1.

7- المصدر نفسه، 19/2.وينظر أيضا: الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر (255هـ)، البيان والتبيين ، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، لبنان، د.ط، 1416هـ - 1996م، 37/3.و أسامة بن منقذ (584ه)، البديع في نقد الشعر، تحقيق أحمد أحمد بدوي، وحامد عبد المجيد، الجمهورية العربية المتحدة - وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دط، دت، ص: 218.

8- الخصائص، 33/1.

9- المرزوقي أبو علي (421هـ)، الأزمنة والأمكنة، دار الكتب العلمية، بيروت ، ط1، 1417ه، ص: 88.

10-البيان والتبيين، 79/1.وابن رشيق القيرواني (456هـ) ، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، حققه وفصله و علق على حواشيه: محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، القاهرة، ط2، 1955م، 309/1.

11- البيان والتبيين ، 77/1.

12- المصدر نفسه، 75/1.

13- المصدر نفسه، 78/1.

14- حمدان سليم، أشكال التواصل في التراث البلاغي العربي، دراسة في ضوء اللسانيات التداولية، رسالة ماجستير، جامعة الحاج لخضر باتنة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، إشراف محمد بوعمامة، 2008-2009م، ص: 66.

15- العقد الفريد، 237/4.

16- البيان والتبيين، 115/1-116.

17- المصدر نفسه، 88/1.وينظر أيضا: أبو حيان التوحيدي (توفي حوالي 414هـ)، البصائر والذخائر، تحقيق وداد القاضي، دار صادر، بيروت، ط1، 1408هـ- 1988م، 65/2.
18- الثعالبي أبو منصور، الإعجاز والإيجاز، مكتبة القرآن - القاهرة، دط، دت، ص: 5.
19- العمدة، 53/2.
20- أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، صححه وضبطه وشرح غريبه: أحمد أمين وأحمد الزين، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، دط، دت، 254/1.
21-المصدر نفسه، 255/1.
22- العمدة، 302/1.
23- ابن أبي الحديد (656ه)،الفلك الدائر على المثل السائر (مطبوع بآخر الجزء الرابع من المثل السائر)، تحقيق أحمد الحوفي وبدوي طبانة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة، القاهرة، دط، دت، 305/4.
24- علي علي صبح، البحث الأدبي بين النظر والتطبيق، دار الكتب العلمية، دط، دت، ص: 17.
25- ابن قيم الجوزية (751ه)، روضة المحبين ونزهة المشتاقين، خرّج آياته وأحاديثه ووضع حواشيه أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط3، 2003م، ص: 175.
26- القلقشندي أحمد بن علي (821ه)، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، تحقيق يوسف علي طويل، دار الفكر، دمشق، ط1، 1987م، 7/3.
27-السرّاج القارئ أحمد بن الحسين،مصارع العشاق، دار صادر- دار النفائس، بيروت، ط1، 1997م، ص: 51.
28-ابن حَبَنَّكَة الميداني عبد الرحمن (1-2)، البلاغة العربية، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ط1، 1416ه-1996م، 106/1.
29- الوشاء أبو الطيب (325ه)، الموشى أو الظرف والظرفاء، تحقيق كمال مصطفى، مكتبة الخانجي، شارع عبد العزيز، مصر - مطبعة الاعتماد، ط2، 1953م، ص: 58.
30- العمدة، 310/1.
31- الرافعي مصطفى صادق (1356ه)، تاريخ آداب العرب، دار الكتاب العربي، دط، دت، 248/3.
32- أورد الزجاجي هذا البيت في أماليه.ينظر: الزجاجي، الأمالي (أمالي الزجاجي).110.
33- الأبيات في ديوان عمر ابن ربيعة. ينظر: محمد محي الدين عبد الحميد، ديوان عمر بن أبي ربيعة (93هـ) ،مطبعة السعادة، مصر، ط2، 1960م، ص: 204-205..وأورد ابن رشيق في العمدة نقدا لأحدهم على الأبيات السابقة جاء فيه: "هذا كله مما لا تحمله إشارة خائف مذعور".ينظر، العمدة، 309/1-310.
34-جنات زراد، "خطاب الجسد ونظام التواصل الإشاري في المرويات الشفاهية الشعبية، مقاربة تداولية"، مقال منشور بمجلة الأثر، ع12، 2011م، ص: 276.
35-البيان والتبيين، 78/1.
36-ابن حزم الأندلسي (456ه)، طوق الحمامة في الألفة والألاّف، تحقيق إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت، لبنان، ط2، 1987م، ص: 113.
37- ينظر: البيان والتبيين، 79/1.

38- طوق الحمامة في الألفة والألاف ، ص: 136.
39- طوق الحمامة في الألفة والألاف، ص: 136-137.
40- مسلم بن الوليد، (شرح ديوان صريع الغواني)،عني بتحقيقه و التعليق عليه:سامي الدهان،دار المعارف،القاهرة،ط3،د ت، ص: 105.
41- طوق الحمامة في الألفة والألاف، ص: 137.
42- ابن حمدون بهاء الدين البغدادي (562ه)، التذكرة الحمدونية، دار صادر بيروت، ط1، 1417ه، 72/3.
43- ابن أبي الإصبع (654ه)، تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، تقديم وتحقيق: الدكتور حفني محمد شرف، الجمهورية العربية المتحدة - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي، دط، دت، ص: 200.
44- ابن المبارك اليزيدي (310ه)، الأمالي، فيها مراث و أشعار أخرى وأخبار ولغة وغيرها، مطبعة جمعية دائرة المعارف، حيدر آباد الدكن – الهند، ط1ن 1938ه، ص: 110.
45- تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، 200.
46- أبو الفرج المعافى بن زكريا بن يحيى الجريرى النهرواني (المتوفى: 390هـ)، الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي، تحقيق عبد الكريم سامي الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط1، 2005م، ص: 314-315.
47-الصفدي خليل بن أيبك (764ه)، الوافي بالوفيات تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، دط، 2000م، ص: 186.
48- ديوان العباس بن الأحنف، شرح وتحقيق عاتكة الخزرجي، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، دط، 1954م، ص: 237.
49- أبو البقاء عبد الله بن الحسين العكبري (616هـ) ، التبيان في شرح الديوان، (شرح ديوان المتنبي المنسوب إلى العكبري)، تحقيق : مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، دار المعرفة ، بيروت ، د ط، د ت، 246/1-247.
50- الأنطاكي داود بن عمر ، المعروف بالأكمه، تزيين الأسواق في أخبار العشاق، المطبعة الأزهرية المصرية، ط2، 1319ه، ص: 113.والأبيات لأبي تمام في ديوانه مع بعض التغيير.ينظر: ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي (502هـ): تحقيق محمد عبده عزام، ذخائر العرب (5)، دار المعارف، القاهرة، مصر، دط، 1964م، 272/4.